A Biographical Study of Poets of Al-Taff: Sayyid Haidar Al-Hilli (1246 AH – 1304 AH) as an Example

Assistant Professor Abbas Jassim Nasser
University of Basrah / Center for Basrah and Arabian Gulf Studies
E-mail: abbas.al-mawla@uobasrah.edu.iq

Abstract:

Sayyid Haidar Al-Hilli was born in the village of Birmana, near the city of Hilla in Iraq. Besides the title "Al-Hilli," he was also known as "Al-Husseini" due to his descent from Zayd al-Shaheed, the son of Imam Zayn al-Abidin (peace be upon him). He rose to prominence in poetry, and many prominent figures of his time attested to his leadership in the field. Al-Hilli was influenced by two major poets: Al-Sharif Al-Radhi and Al-Muhyar Al-Daylami. His literary legacy includes three works in addition to his poetic diwan. He was a student of Sheikh Hassan Al-Falluji and his uncle Sayyid Mahdi Sayyid Dawood.

Sayyid Haidar passed away in 1304 AH at the age of 59 and was mourned by prominent poets, including Sayyid Muhammad Saeed Al-Haboubi, Sheikh Hassoun Al-Abdullah, and Sheikh Hassan Al-Qayyim. His poetry is marked by a variety of themes, although he was most renowned for his elegies, particularly in lamentation of Imam Hussein (peace be upon him).

Key words: Al-Talibi poets, Al-Sharif Al-Radhi, Al-Muhyar Al-Daylami, literary leadership, poetic themes, special elegy.

دراسة سيرية لشعراء الطف
(السيد حيدر الحلي (١٢٤٦هـ . ١٣٠٤هـ مثالاً)

أ.م عباس جاسم ناصر
جامعة البصرة / مركز دراسات البصرة والخليج العربي
E-mail: abbas.al-mawla@uobasrah.edu.iq

الملخص:

ولد السيد حيدر الحلي في قرية بيرمانة، إحدى قرى مدينة الحلة في العراق، وإضافة الى لقب (الحلي)، كان يلقب بـ (الحسيني)، لانتسابه إلى زيد الشهيد بن الامام زين العابدين (عليه السلام)، تسنم دفة الريادة في الشعر، وشهد بذلك الكثير من أعلام عصره.

تأثر الشاعر الحلي بالشاعرين الكبيرين الشريف الرضي، والمهيار الديلمي، ومن آثاره في الأدب ثلاثة كتب أدبية، إضافة الى ديونه الشعري، وكان تلميذاً لشخصين هما: الشيخ حسن الفلوجي، وعمّه السيد مهدي السيد داود.

كانت وفاة السيد حيدر سنة (١٣٠٤هـ)، وله من العمر ٥٩ سنة، ورثاه جملة من الشعراء الكبار أمثال: السيد محمد سعيد الحبوبي، الشيخ حسون العبد الله، والشيخ حسن القيم.

ما يتميز به شعر السيد الحلي هو تعدد الأغراض الشعرية، لكنه اشتهر بالرثاء أكثر من غيره، خصوصاً رثاء الإمام الحسين (عليه السلام).

الكلمات المفتاحية: الشعراء الطالبيين ، الشريف الرضي ، مهيار الديلمي، الزعامة الأدبية ، الأغراض الشعرية، الرثاء الخاص

المقدمــة:

لقد سطعت أنوار أهل بيت النبي(صلى الله عليه وآله) في أفق الأدب والشعر فحلقت في سماء المجد في رونقها وبريقها، وكيف لا وهذا البلد كان ولم يزل منذ بزوغ شمس الإسلام مروراً بالعصور السالفة وإلى عصرنا هذا تسنم عرش الريادة مركز الصدارة في الشعر العربي.

وقد حفلت مدينة الحلة العراقية بالعديد من الأسر الأدبية التي ملأت الساحة الأدبية بأعاظم الأدباء والشعراء، ومن ألمع هذه الأسر هي أسرة الشاعر سليمان الكبير الذي هو الجد الأكبر لشاعرنا الكبير السيد حيدر الحلي (رحمه الله)، وهذه الأسرة توفر فيها ما لم يتوفر في غيرها من أسباب الخلود.

وبالرغم أن السيد حيدر الحلي علا نجمه من بين أفراد هذه الأسرة وارتقى سلماً سامياً فيها لقوة شاعريته ومنزلته الأدبية، إلا أن البيئة التي نشأ فيها لها الأثر الكبير على نبوغه، فنرى أن جده الأكبر السيد سليمان الكبير كان من كبار الشعراء ومن أعلام الأدب في الحلة، وأيضاً أبوه السيد سليمان الصغير، وكذلك عمه السيد مهدي الذي خلّف ديواناً ضخماً أسفر عن سموِّه في سماء الأدب.

لقد كرس السيد حيدر الحلي شعره في القضية الحسينية فكان عبارة عن مراث في جده الإمام الحسين (عليه السلام) مسجلاً فيها وقائع الطف الدامية بلغة المكلوم والمحزون الذي شفّه الأسى، فلم تغب مخيلته مأساة كربلاء، فتراه لا تمرّ عليه سنة دون أن يركز فيها على الأحداث المؤلمة التي جرت على سيد الشهداء الإمام الحسين (عليه السلام) وعلى أهل بيته وأصحابه من القتل، وما جرى على مخدرات بيت الوحي من الأسر والسبي، كل هذه الأحداث بكاها السيد حيدر شعراً وهو مكلوم الفؤاد هائج العواطف، لذا ترى في شعره القوة والمتانة في التعبير ممزوجة بصدق العاطفة.

فكان البحث في جهتين:

الأولى: إفاضة في سيرة الشاعر الحلي وحياته.

الثانية: تسليط الضوء على شاعريته.

أضواء في سيرة الشاعر السيد حيدر الحسيني الحلّي

أولاً: الاسم والكنية والانحدار النسبي

هو السيد حيدر بن سليمان بن داود بن سليمان، ويكنى أبو سليمان، ويلقب بـ (الحسيني الحلي)، يرجع نسبه إلى الشهيد زيد بن الامام زين العابدين علي بن الامام الحسين بن الامام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليهم السلام) [١].

المولد والنشأة:

ولد الشاعر السيد حيدر الحلي في قرية بيرمانة [٢] التابعة لمدينة الحلة العراقية، وقد عاش يتيماً؛ إذ

إنه فقد والده قبل أن يكمل العام الثاني من عمره [٣]، فتكفل في تربيته ورعايته عمّه السيد مهدي السيد داود فأحسن واجتهد في تربيته [٤]، وتعهّده مثل ما يتعهد الأب ابنه، ومن هنا نجد هذا العطف بادٍ عليه في الحزن الذي لفه والذي أظهره في رثائه لعمه بقوله:

أظبا الردى انصلتي وهاك وريدي ذهب الزمان بعدتي وعديدي [٥].

فكان لعمّه الفضل الكبير في صقل موهبته فنشأ شاعراً تسنم دفة الريادة في الشعر.

وكان يحفظ الشعر منذ بدء نشأته، ويعالج النظم، وقد نالت قصائده قبولاً واسعاً واستحساناً كبيراً في نوادي الأدب؛ إذ إن كل من كان يقرأ شعره يتفاءل بنبوغه في صناعة الشعر، ورأوا له مستقبلاً زاهراً في هذا المجال، وكما أنه أبدع في الشعر فإن جانب النثر عنده لا يقل عن مرتبة النظم من حيث البلاغة والفصاحة [٦].

شخصيته ومكانته الاجتماعية:

لقد اتفقت كلمات الأعلام المعاصرين له وغيرهم، على أن الشاعر السيد حيدر الحلي كان من الشخصيات المرموقة، وذات الشأن والرفعة والحول والطول، وقد سلم من سهام النقد، وارتقى عن أن يناله أحد بسوء، لما كان يتصف به من سمات وصفات أكبرته في عيون من عاصره، ولعل من لم يتمعن في دراسة الأجواء الاجتماعية التي عاصرها الشاعر يلمس عظم خطره، وما وهبه الله من مكانة ومنزلة رفيعة، فقد كان محل احترام الزعيم السياسي والديني والقبلي، ونال حب الاعيان والشخصيات؛ لأنه من بيت شريف النسب عتيد القدسية.

ويمتلك الشاعر جاهاً واسعاً وقدراً عظيماً [٧] .ونفساً أبيةً، فلم يتوخّ الحصول على المال من شعره؛ إذ كان معروفاً بالسخاء [٨]، أما في الأوساط الأدبية والعلمية فقد حظي بمكانة شامخة [٩]، فضلاً عمّا يمتلكه من الأدب مقاماً رفيعاً من التقوى والورع والعبادة [١٠].

ومن القضايا التي تدل على مكانته الاجتماعية ما ذكره العلامة الأميني صاحب الغدير، من أن السيد حيدر الحلي قصد ذات يوم مدينة سامراء . حين كان يسكنها الميرزا الشيرازي . قاصداً زيارة الإمامين العسكريين(عليهما السلام)، وبعد الفراغ من الزيارة قصد السيد الحلي الميرزا الشيرازي، فهنأه الأخير على قصيدة له، وهي القصيدة الهمزية، فأراد الميرزا تكريمه بعشرين ليرة، فعرض على ابن عمه السيد إسماعيل الشيرازي مستشيراً له في ذلك، فقال السيد إسماعيل: ما تقول في منزلة الكميت ودعبل الخزاعي عند الإمام الصادق (عليه السلام)، أهما أفضل أم السيد حيدر وهو ابن رسول الله(صلى الله عليه وآله)؟ فقال الميرزا الشيرازي: بل إنّه أفضل منهما، قال إذن لابد أن تكرمه بأرفع ما يكون من التكريم، فقصده الميرزا الشيرازي بنفسه وأكرمه بمائة ليرة، بعد أن تناول يده فقبّلها [١١].

الشاعر الحلي على ألسن العلماء

لقد امتاز شعر السيد حيدر بالجزالة والرقة، وعذوبة اللفظ مع قوة المعنى، وقد نُعت بأنه من الذين حافظوا على الشعر العربي من الاندراس والضياع، من مجددي المعاني، في زمان أصيب فيه الشعر والأدب بالضعف والخمول، حتى كاد أن يكون غير معبر عن حاجة الناس وحاجة الفن، ففي مثل هذا الظرف طلع نجم السيد حيدر الحلي وتسنم دفة الريادة في الشعر، وأصبح لا يدانيه أحد، ويشهد بذلك ما طفحت به كلمات المدح له والثناء عليه على ألسن الكثير من أعلام عصره وغيرهم مما يكشف المنزلة العالية والمقام الرفيع الذي كان يتمتع به الشاعر.

فقد قال عنه السيد محمد القزويني (ت/١٣٣٥هـ): «أنت أشعر الشعراء الطالبيين» [١٢].

وقال فيه الميرزا حسين النوري: «إنه إمام شعراء العراق، وسيد الشعراء في الندب والمراثي على الاطلاق والمؤيد من عند الملك العلي» [١٣].

أما العلامة السيد ميرزا صالح القزويني- عند سماعه مرثية منه لبعض الاعلام – فقد قال في حقه: «إن رثأك يحبب إلينا الموت»[١٤]. وهذه الكلمة شهادة قيمة تصدر من زعيم ديني وأديب كبير.

وقال عنه السيد محسن الأمين: «... أديبًا وقورًا تقيًا عليه سمات العلماء الأبرار كثير العبادة والنوافل كريم الطبع فاق شعراء عصره في رثاء الحسين (عليه السلام) وفي الطليعة كان شاعرًا بارعًا غير منازع وله إلمام بالعربية مصنفًا تقيًا ناسكًا ويتقرب الله تعالى من مدح أهل البيت بالسبب الأقوى»[١٥].

وقال عنه الأديب الدكتور الشيخ احمد الوائلي:«... ولكن شعر السيد حيدر يظل الأفق الذي تحتدم أجوائه بما لا يسع البيان تصويره من الأبعاد الملتهبة التي تتصل بالواقعة وما يتفجر عنها من ردود فعل...» [١٦].

وقال عنه السيد جعفر مرتضى العاملي: «الشاعر المفلّق والأديب المحلّق، طليعة شعراء العراق في عصره» [١٧].

وقال عنه كاشف الغطاء: «إمام شعراء العراق، شاعر أهل البيت على الاطلاق، الجامع بين فصاحة اللسان وبلاغة البيان، وشدة التقوى والورع وقوة الايمان، ويحق أن يقال: هو فخر الطالبيين وناموس العلويين» [١٨].

وقال العلامة المجلسي: «خريت صناعة الشعر السيد المؤيد الأديب اللبيب فخر الطالبيين، وناموس العلويين، السيد حيدر بن السيد سليمان الحلي» [١٩].

وقال عنه السماوي: «كان شاعراً بارعاً غير منازع، وأديباً أريباً لم يدافع، وكان ذا إلمام بالعربية، مصنفاً ضم الى الأدب نسكاً وتقوى» [٢٠].

وقال السيد جواد شبر: «كان شاعرًا مجيدًا من أشهر شعراء العراق أديبًا ناثرًا جيد الخط نظم فأكثر ولا سيما في رثاء الحسين (عليه السلام)، فقد حلّق، بالرغم من أن معاصريه من فحول الشعراء، وأكابر

الأدباء، فقد فاقهم حتى اعترفوا له بالفضل» [٢١].

تأثره بمن سبقه من الشعراء

عند دراسة السيد حيدر الحلي (رحمه الله) وتسليط الضوء على أشعاره نجد بوضوح أن هناك صلة وثيقة بالشاعرين العبقريين الشريف الرضي والمهيار الديلمي، وان شاعريته متأثرة جداً بهما، كونه تمعن في دراسة شعر الشريف الرضي على نحو الدراسة التحليلية ودوّن أغلب قصائده والمختار من ديوانه في كتبه الأدبية، وقام بنسخ ديوان مهيار الديلمي بأجمعه في أربعة أجزاء بالقطع الكبير، نسخه وكان عمره (٢٥ سنة) وكتب في آخره: «تمّ الجزء الرابع من ديوان مهيار الديلمي على يد المحتاج إلى ربه الغني حيدر بن سليمان الحسيني يوم الاثنين وهو اليوم السابع عشر من شوال ١٢٧١هـ».

ومن هنا نراه قد ألمّ بالكثير من معاني الشريف الرضي ومهيار الديلمي وجعلها ضمن قصائده بقوالب من الألفاظ قد تكون في بعض الأحيان أجزل وأقوى من الأصل [٢٢].

تأليفاته:

لم ينحصر ابداع السيد حيدر الحلي بالشعر فقط، بل له باع في التأليف أيضاً، فقد خلف ثلاثة كتب – سوى ديوانه – أدبية تكشف عن رحابة أفقه في دنيا الأدب، وهذه الكتب هي:

١. العقد المفصل في نعت قبيلة المجد المؤثل: وهو عبارة عن موسوعة أدبية تضمنت الكثير من علوم الأدب وفنونه، ويشتمل على مقدمة وثمانية وعشرين باباً وخاتمة [٢٣].
٢. الأشجان في مراثي خير انسان: وقد جمع في هذا الكتاب مراثي صديق له وهو العلامة السيد ميرزا جعفر القزويني، وكل قصيدة فيه قدم لها مقدمة خاصة من باب التعريف لصاحبها بأسلوبه المعهود[٢٤].
٣. دمية القصر في شعراء العصر[٢٥]: وقد جمع في هذا الكتاب أشعار ما يربو على الثلاثين من شعراء العراق في القرن الثالث عشر الهجري، مدحوا فيها الحاج محمد صالح كبة البغدادي وأولاده، وكذلك في رثاء والده الحاج مصطفى[٢٦].

أساتذته:

يظهر من دراسة سيرته ومن بعض المحققين أنه لم يُعرف له استاذاً أخذ عنه سوى شخصين هما:

١. عمّه السيد مهدي السيد داود [٢٧].
٢. الشيخ حسن الفلوجي [٢٨].

شعوره بالزعامة الأدبية:

من خلال آثار الشاعر نجد أنه كان يشعر بالتفوق على شعراء عصره وهذا ما جعله مؤمنا بأن له الزعامة الأدبية رغم وجود المنافسين له من كبار الشعراء في النجف الأشرف، فتراه كثيراً مّا يصرّح بهذا المعنى في أحاديثه وشعره ورسائله، وخاصة عندما يطفح به الغيظ، ومما يشير الى ذلك ما ورد في رسالة له إلى الميرزا العلامة صالح القزويني قوله: «فلقد علم هذا العصر، أني لسانه الذي انتهت إليه مقالة الشعر» [٢٩].

ومن شعره في هذا المعنى:

وإذا اهتززتُ لِمدحِ ذي كرم ... وأنا الذي لَم يَسخَ بي أحدٌ

فـــأنا لِســانٌ والــزَّمانُ فَم ... إلاّ غَــدا ونَــديمُهُ النَـدَمُ

وفاته:

كانت وفاة السيد حيدر في الليلة التاسعة من ربيع الثاني من العام ١٣٠٤هـ، في مدينة الحلة، وله من العمر ٥٩ سنة، ونقل جثمانه الى النجف الأشرف ودفن في صحن الإمام أمير المؤمنين علي (عليه السلام) بين مرقدي الإمام الشيخ جعفر الشوشتري والحجة السيد ميرزا جعفر القزويني الحلي، وأقام له مأتم العزاء في النجف كل من السيد محمد القزويني وأخوه السيد حسين، وعطلت دروس الحوزة العلمية في سامراء حداداً عليه ثلاثة أيام بأمر من المرجع الميرزا الشيرازي إذ أقام له العزاء في مدرسته [٣٠].

ورثاه جملة من كبار الشعراء أمثال: السيد ابراهيم الطباطبائي، والسيد محمد سعيد الحبوبي، والشيخ حسون العبد الله، والشيخ حسن القيم، وولده السيد حسين وابن أخيه السيد عبد المطلب، وآخرون [٣١].

ونذكر هنا بعضاً من أبيات الرثاء في حقه لبعض الشعراء:

١. السيد محمد سعيد الحبوبي

أبِــن لــيَ نجــوى لــو تطيــقُ بيــانا ... ألســـتَ لعدنـــانٍ فمـــاً ولســـانا

وأبلـــغ خطابـــاً فالبلاغـــةُ سلّمـــت ... لكفيـــكَ منـــها مقـــوداً وعِنـــانا

وجــل يــا جــوادَ الســبقِ فــي حلباتِهــا ... فهاشـــمُ ســـامت للطعـــانِ رهانـــا [٣٢].

٢. السيد ابراهيم الطباطبائي

أيجــدي الفتـــى فيـــه يصـــفق راحـــا ... ويـــرمض قلبـــا يلـــوع التياحـــا

لقـــد غلـــب الجـــرح ان يســـتطبّ ... فمـــن أيـــن أدمِـــلُ فيـــك الجراحـــا

أرِح فلغيـــــــرك هـــــــذا الـــــــرواح برحـــــتَ ولســـــتُ أطيـــــق البراحـــــا [٣٣].

٣. الشيخ حسون العبد الله

هـل الـدهر يصـغي السـمع إن رحـت عاتبـاً وهــل إن صــغى يومــاً يجيــب مخاطبــاً [٣٤].

٤. والشيخ حسن القيم

أفيـــــدري ثـــــراك يـــــا خيـــــر رمـــــس أودع اللّـــــــــه عنـــــــــده أي نفـــــــس

كنـــــت تـــــدعى بـــــالأَمس حفـــــرة لحـــــد وَبـــــــه اليـــــوم صـــــــرت دارة قـــــدس

فيـــــه أَصـــــبحت عـــــامراً ولكـــــم مـــــن بيـــت مجـــد بعـــد ابـــن أَحمـــد درس [٣٥].

شاعرية السيد حيدر الحلي:

مما يتميز به شعر السيد الحلي هو تعدد الأغراض الشعرية، فلا تجد غرضاً إلا وكان فيه من المبدعين، فقد أجاد في المديح كما في الرثاء، الى الوجدانيات والحماسة والتقريض، كذلك أبدع في الموشحات والتهاني والتاريخ الشعري، وقد بانت قمة شاعريته في المراثي، ولما كانت مراثيه تحمل من القوة والروعة بما يشهد له كبار الشعراء سمي بـ (ناعية الطف) [٣٦].

ونحن هنا نعرض صفحاً عن الأغراض الأخرى ونقتصر في البحث على الرثاء؛ كونه اشتهر به أكثر من غيره [٣٧]، وتحدياً رثاء سيد الشهداء الإمام أبي عبد الله الحسين (عليه السلام).

الرثاء في شعر السيد حيدر الحلي

ينقسم الرثاء عند السيد الحلي على قسمين:

الأول: يمكن ان نطلق عليه الرثاء العام، وهو بدوره ينقسم على قسمين:

أ) رثاء الأقارب [٣٨]، كرثاء ولده أو ولده وأخاه معاً [٣٩].

ب) رثاء كبار العلماء [٤٠]، والأشراف [٤١]، والأصدقاء المقربين [٤٢].

الثاني: الرثاء الخاص، وهو رثاؤه لأهل بيت النبي (صلى الله عليه وآله)، وقد نال الشاعر في هذا المجال شهرة واسعة وأصبح مثار اعجاب كبار الشعراء والادباء المعاصرين له [٤٣]، وقد وصفه بعضهم إماماً في الرثاء [٤٤].

ونجد أن رثاءه لشهداء واقعة الطف وخصوصاً الإمام الحسين(عليه السلام) أخذ مساحة واسعة من شعره، وقد يعد الغرض الرئيس في هذا المجال، أضف الى ذلك نرى سمة الثقافة طافحة في مجمل أشعاره؛ وهذا يعود الى صلته الوثيقة بالشاعرين الكبيرين الشريف الرضي، ومهيار الديلمي – كما مر بنا سابقاً – وكذلك بشعراء الرثاء والمديح المجيدين، وسعة اطلاعه على التراث العربي.

أمثلة من شعره في رثاء الحسين (عليه السلام) وواقعة الطف

نرى من خلال رثاءه للإمام الحسين (ع) أن شعره يستبطن الإشادة بالإمام (ع) ومآثره مفتخراً بما حققته ثورته المقدسة، ويتجلى ذلك في فخره بهم وتعداده لأمجادهم وهو يخاطب تربة الطف:

يـــا تربـــة الطـــف المقدســـة التـــي هـــالوا علـــى ابـــن محمـــد بوغاءهـــا

حيـــت ثـــراك فلاطفتـــه ســـحابة مـــن كـــوثر الفـــردوس تحمـــل ماءهـــا

واريـــــت روح الأنبيـــــاء وإنمـــــا واريـــت مـــن عـــين الرشـــاد ضـــياءها [٤٥].

ويروي العلامة السيد حسن صدر الدين الكاظمي (١٣٥٤هـ) أنه سمع من السيد الحلي أنه رأى السيدة فاطمة الزهراء (سلام الله عليها) في المنام فسلم عليها وقبل يديها فقالت له هذا البيت:

أنـــاعي قتلـــى الطـــف لا زلـــت ناعيـــا تهـــيج علـــى طـــول الليـــالي البواكيـــا

أعـــد ذكـــرهم فـــي كـــربلا إنّ ذكـــرهم طـــوى جزعًـــا طـــي الســـجل فؤاديـــا

فانتبه وهو يردد هذا البيت، فجعل يتمشى ويبكي يريد تتميم القصيدة، يقول – السيد – ففتح الله علي أن قلت:

ودع مقلتـــي تحمـــر بعـــد ابيضاضـــها بعـــد رزايـــا تتـــرك الـــدمع داميـــا

ستنســـى الكـــرى عينـــي كـــأن جفونهـــا حلفـــن بمـــن تنعـــاه أن لا تلاقيـــا

وتعطـــي الـــدموع المســـتهلات حقهـــا محـــاجر تبكـــي بـــالغوادي غواديـــا

قال ثم ان السيد أوصى ان تكتب هذه القصيدة وتوضع معه في كفنه[٤٦].

نجد في شعر السيد في رثاءه للإمام الحسين (عليه السلام) وشهداء الطف حرارة ملتهبة، وتفجراً شديداً، وصورة دقيقة، ووصفاً بديعاً، وديباجة نقية، فكان يمتاز بالصدق في العاطفة والجزالة في الأسلوب، فهو يرثي الإمام الحسين (عليه السلام) رثاء موتور قد أهدرت حقوقه، وجرحت كرامته، ويظهر ذلك جلياً في قصيدته الميميّة الشهيرة:

إن لـم أقـف حيـث جـيش المـوت يـزدحم فـلا مشـت بـي فـي طـرق العلـى قـدم

لا بـــد أن أتـــداوى بالقنـــا فلقـــد صـــبرت حتـــى فـــؤادي كلـــه ألـــم

عنـــدي مـــن العـــزم ســـر لا أبـــوح بـــه حتـــى تبـــوح بـــه الهنديـــة الخـــذم

لا أرضـعت لـي العلـى ابنـا صـفو درتهـا إن هكـــذا ظـــل رمحـــي وهـــو مـــنفطم

لأحلـــبنّ ثـــدي الحـــرب وهـــي قنـــاً لبانهـــا مـــن صـــدور الشـــوس وهـــو دم
مـــالي أســـالم قومـــا عنـــدهم ترتـــي لا ســـالمتني يـــد الأيـــام إن ســـلموا

ثم يتوجه بخطابه الى الامام المهدي المنتظر (عجل الله فرجه) مستنهضاً إياه:

يـا بـن الألـى يقعـدون المـوت إن نهضـت بهـم لـدى الـروع فـي وجـه الضّـبا الهمـم
الخيـــل عنـــدك ملتهـــا مرابطهـــا والبـــيض منهـــا عـــرى أغمادهـــا الســـأم
هـــذي الخـــدور لهـــا الأعـــداء هاتكـــة وذي الجبـــاه ألا مشـــحوذة تســـم
أعيـــذ ســـيفك أن تصـــدى حديدتـــه ولـــم تكـــن فيـــه تجلـــى هـــذه الغمـــم
مـــا خلـــت تقعـــد حتـــى تســـتثار لهـــم وأنـــت أنـــت وهـــم فيمـــا جنـــوه هـــم [٤٧].

وفي ثنايا قصائده الرثائية نراه يخاطب الإمام المهدي المنتظر (عجل الله فرجه) وآل هاشم بلهجة قاسية تكشف عن الألم واللوعة التي يعيشها لما جرى على أهل البيت (عليهم السلام) يوم الطف، فعلى سبيل المثال هذه الأبيات من قصيدة طويلة:

فقـــل لنـــزار مـــا حنينـــك نـــافع ولـــو مـــت وجـــدا بعـــدهم وتزفـــرا
حـــرام عليـــك المـــاء مـــا دام مـــوردا لأبنـــاء حـــرب أو تـــرى المـــوت مصـــدرا
وحجـــر علـــى أجفانـــك النـــوم عـــن دم شـــبا الســـيف يـــأبى أن يطـــل ويهـــدرا
أللهاشـــمي المـــاء يحلـــوا ودونـــه ثـــوت قومـــه حـــرى القلـــوب علـــى الثـــرى
وتهـــدأ عـــين الطـــالبي وحولهـــا جفـــون بنـــي مـــروان ريّـــا مـــن الكـــرى
كأنـــك يـــا أســـياف غلمـــان هاشـــم نســـيت غـــداة الطـــف ذاك المعفـــرا [٤٨].

ولما يأخذ منه الحزن مأخذه يعرض عن ساحات أنسه وذاك الصبا، ويبعد نديمه الغض مخاطباً إياه بلوعة وانكسار، فتراه يقول:

تركـــــت حشـــــاك وســـــلوانها فخـــــل حشـــــاي وأحزانهـــــا
أغـــــض الشـــــبيبة عنـــــي إليـــــك فقـــــض بزهـــــوك ريعانهـــــا
ودعنـــــي أصـــــارع همـــــي وبـــــت ضـــــريع مـــــدامك نشـــــوانها
قـــد اســـتوطن الهـــم قلبـــي فعفـــت لـــك الغانيـــات وأوطانهـــا

عـــــــدوت ملاعـــــــب ذات الأراك فلســـــــت ألاعـــــــب غزلانهـــــــا

ما هي علة ذلك الحزن والإعراض عن مواطن الأنس أيها الشاعر؟ تراه يجيب:

كفـــاني ضـــنا أن تـــرى فـــي الحســـين شـــــفت آل مـــــروان أضـــــغانها

فأغضـــــبت الله فـــــي قتلـــــه وأرضـــــت بـــــذلك شـــــيطانها [٤٩].

ويمكن القول على نحو الجزم أننا تصفحنا شعر الرثاء عموماً، ورثاء الإمام الحسين على وجه الخصوص، لم نجد هذه الصورة المشجية الأخاذة التي أفرزتها تلك المشاعر الملتهبة بالحرارة واللوعة:

عفيـــرًا متـــى عاينتـــه الكمـــاة يختطـــف الرعـــب ألوانهـــا

فمـــا أجلـــت الحـــرب عـــن مثلـــه صـــــريعًا يجـــــبن شـــــجعانها

تريـــب المحيـــا تظـــن الســـماء بـــأن علـــى الأرض كيوانهـــا

غـريبـــا أرى يا غـــريب الطفـــوف توســـد خـــديك كثبانهـــا [٥٠].

وتتلبد غيوم الحزن على قلبه، وتتراكم أثقال الهم على صدره، فتراه ينوء بحمل ثقيل وهو يرى الناس قد أشاحوا بوجوههم عن الشريعة الغراء، حتى أصبحوا في واد سحيق من اللامبالاة، لذا تراه يتوجه للإمام الحجة بن الحسن المهدي (عجل الله فرجه) بكلمات الاستنهاض المشجية:

الله يـــــا حـــــامي الشـــــريعة أتقـــــر وهـــــي كـــــذا مروعـــــة

بـــــك تســـــتغيث وقلبهـــــا لـــــك عـــــن جـــــوى يشـــــكو صـــــدوعه

تـــــدعو وجـــــرد الخيـــــل مصـــــغية لـــــدعوتها ســـــميعة

وتكـــــاد ألســـــنة الســـــيوف تجيـــــب دعوتهـــــا ســـــريعة

فصـــــدروها ضـــــاقت بســـــر المـــــوت فـــــأذن أن تذيعـــــه

ويواصل السيد حيدر استنهاض الإمام (عجل الله فرجه) فيقول:

مـــات التصـــبر فـــي انتظـــارك أيهـــا المحيـــي الشـــريعة

فـــانهض فمـــا أبقـــى التحمـــل غيـــر أحشـــاء جزوعـــة

قـــد مزقـــت ثـــوب الأســـى وشـــكت لواصـــلها القطيعـــة

كـــم ذا القعـــود وديـــنكم هـــدمت قواعـــده الرفيعـــة

تنعـــــــى الفـــــــروع أصـــــــوله وأصـــــــوله تنعـــــى فروعـــــه [٥١].

الى أن يصل السيد الذروة بكلمات الاستنهاض:

مـــــاذا يهيجـــــك إن صـــــبرت لوقعـــــة الطـــــف الفظيعـــــة

أتـــــرى تجـــــيء فجيعـــــة بـــــأمض مـــــن تلـــــك الفجيعـــــة

حيـــث الحســـين علـــى الثـــرى خيـــل العـــدى طحنـــت ضـــلوعه

قتلتـــــــــــه آل أميـــــــــــة ظـــــام إلـــــى جنـــــب الشـــــريعة

ورضـــــــيعه بـــــــدم الوريـــــــد مخضـــــب فاطلـــــب رضـــــيعه [٥٢].

الهوامش:

١. الأمين، محسن، أعيان الشيعة: ج٦، ص٢٦٦.

٢. ينظر: عمر كحالة، معجم المؤلفين: ج٤، ص٩٠.

٣. شبر، سيد جواد، أدب الطف: ج٨، ص٨.

٤. ينظر: اليعقوبي، محمد علي، البابليات: ج٢، ص١٥٣.

٥. ينظر: الحلو، محمد علي، أدب المحنة أو شعراء المحسن بن علي: ص٣٢٠ – ٣٢١.

٦. أدب الطف، (مصدر سابق): ج٨، ص١١.

٧. ينظر: المصدر نفسه: ج٢، ص١٥٥.

٨. الزركلي، خير الدين، الأعلام: ج٢، ص٢٩٠.

٩. ينظر: البابليات (مصدر سابق): ج٢، ص١٥٥.

١٠. ينظر: السماوي، محمد، الطليعة من شعراء الشيعة: ج١، ص٢٩٧.

١١. ينظر: الأميني، عبد الحسين، الغدير: ج٢، ص٢٣.

١٢. الحلي، سيد حيدر، ديوان السيد حيدر الحلي: ج١، ص١٢.

١٣. النوري، ميرزا حسين، جنة المأوى في ذكر من فاز بلقاء الحجة: ص١٦٠.

١٤. ديوان السيد حيدر الحلي (مصدر سابق): ج١، ص١٢.

١٥. أعيان الشيعة (مصدر سابق): ج٦، ص٢٦٦.

١٦. الوائلي، أحمد، تجاربي مع المنبر: ص٢٢٨ . ٢٢٩.

١٧. العاملي، جعفر مرتضى، مأساة الزهراء: ج٢، ص٢٥.

١٨. آل كاشف الغطاء، محمد الحسين، جنة المأوى: ج١، ص١٨٧.

١٩. المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ج٥٣، ص٢٦٧.

٢٠. الطليعة من شعراء الشيعة (مصدر سابق): ج١، ص٦٦.

٢١. أدب الطف، (مصدر سابق): ج٨، ص٨.

٢٢. المصدر نفسه: ج٨، ص١٥.

٢٣. ينظر: أعيان الشيعة (مصدر سابق)، ج٦، ص٢٦٦؛ بحر العلوم، محمد، الفوائد الرجالية: ج١، ص١٩٤؛ الطهراني، آقا بزرگ، الذريعة إلى تصانيف الشيعة: ج٨، ص٢٦٥، وج١٥، ص٢٩٨؛ الزركلي، الأعلام: ج٢، ص٢٩٠؛ كحالة، عمر، معجم المؤلفين: ج٤، ص٩٠.

٢٤. ينظر: ديوان السيد حيدر الحلي، (مصدر سابق): ج١، ص١٣؛ الزركلي، الأعلام (مصدر سابق): ج٢، ص٢٩٠؛ الذريعة، (مصدر سابق): ج٨، ص٢٦٥؛ معجم المؤلفين (مصدر سابق): ج٤، ص٩٠.

٢٥. ينظر: ديوان السيد حيدر الحلي، (مصدر سابق): ج١، ص١٣؛ الزركلي، الأعلام (مصدر سابق): ج٢، ص٢٩٠؛ الذريعة، (مصدر سابق): ج٨، ص٢٦٥؛ معجم المؤلفين (مصدر سابق): ج٤، ص٩٠.

٢٦. ينظر: الذريعة للطهراني (مصدر سابق): ج٨، ص٢٦٦.

٢٧. ينظر: اليعقوبي، محمد علي، البابليات (مصدر سابق): ج٢، ص١٥٤ – ١٥٥.

٢٨. ترجم له الشيخ اليعقوبي في البابليات قائلاً هو: الشيخ حسن بن الشيخ محمد صالح، بن الشيخ حسن، من أسرة آل الفلوجي التي يرجع أصلها الى ربيعة، كان عالماً ورعاً له إلمام بعلوم شتى كالعربية والمعاني والبيان والمنطق والرياضيات والفقه وأصوله، توفي حوالي سنة ١٢٩٨هـ، ينظر: البابليات: ج٢، ص١٢٤.

٢٩. ينظر: أدب المحنة أو شعراء المحسن بن علي، (مصدر سابق): ص٣٢٤ – ٣٢٥.

٣٠. ينظر: اليعقوبي، محمد علي، البابليات (مصدر سابق): ج٢، ص١٦٨.

٣١. ينظر: شبر، سيد جواد، أدب الطف، (مصدر سابق): ج٨، ص١٤.

٣٢. الساعدي، عبد الجبار، ناعية الطف: ص١٣ –١٤.

٣٣. المصدر نفسه: ص١٣.

٣٤. المصدر نفسه: ص١٢.

٣٥. المصدر نفسه: ص١٣.

٣٦. حتى ان أحد الكتاب وهو الأستاذ عبد الجبار عبد الرضا الساعدي له تأليف يحمل هذا العنوان: (ناعية الطف السيد حيدر الحلي)، مطبوع سنة ١٩٧٦م.

٣٧. الساعدي، عبد الجبار، ناعية الطف (مصدر سابق): ص٣٧.

٣٨. ينظر: ديوان السيد حيدر الحلي، (مصدر سابق): ج٢، ص١٣٥.

٣٩. المصدر نفسه: ج٢، ص١٢٤ –١٢٥.

٤٠. المصدر نفسه: ج٢، ص٩٧، ١٠٣، ١١٠، ١٢١، ١٤٧.

٤١. المصدر نفسه: ج٢، ص٥٩، ٦٨، ٨١، ١١١.

٤٢. المصدر نفسه: ص٩٣، ١٣٦.

٤٣. الموسوي، مدين، السيد حيدر الحلي شاعراً: ص٥٤.

٤٤. ينظر: الحلي، السيد حيدر، العقد المفصل في قبيلة المجد المؤثل: ج١، ص٢١.

٤٥. ينظر: ديوان السيد حيدر الحلي، (مصدر سابق): ج١، ص٦٥.

٤٦. البابليات، (مصدر سابق): ج٢، ص١٥٦.

٤٧. ينظر: ديوان السيد حيدر الحلي، (مصدر سابق): ج١، ص١٥٠ - ١٥١.

٤٨. المصدر نفسه: ج١، ص١١١ -١١١٢.

٤٩. المصدر نفسه: ج١، ص١٥٧ - ١٥٨.

٥٠. المصدر نفسه: ج١، ص١٦٠.

٥١. المصدر نفسه: ج١، ص١٦٠.

٥٢. المصدر نفسه: ج١، ص١٢٧ - ١٣٠.

المصادر:

١. آل كاشف الغطاء، محمد الحسين، جنة المأوى، دار الأضواء . بيروت . ط/٢، ١٤٠٨هـ . ١٩٨٨م.

٢. الأمين، محسن، أعيان الشيعة، تحقيق حسن الأمين، دار التعارف للمطبوعات – بيروت –لبنان، ط/١ . ١٤٠٩هـ، ١٩٨٩م.

٣. الأمين، محسن، أعيان الشيعة، تحقيق حسن الأمين، دار التعارف للمطبوعات . بيروت . لبنان (د.ت)

٤. الأميني، عبد الحسين، الغدير، نشر دار الكتاب العربي، بيروت، ط/٤، ١٣٩٧هـ . ١٩٧٧م.

٥. بحر العلوم، محمد، الفوائد الرجالية، تحقيق: محمد صادق بحر العلوم . حسين بحر العلوم، نشر مكتبة الصادق، طهران، ط/١، ١٣٦٣هـ ش.

٦. الحلو، محمد علي، أدب المحنة أو شعراء المحسن بن علي، نشر: مؤسسة دار الكتاب (الجزائري) – قم – إيران، ط/١، ١٤١٩هـ.

٧. الحلي، السيد حيدر، العقد المفصل في قبيلة المجد المؤثل، تحقيق: د. مضر سليمان، نشر: مؤسسة الرافد للمطبوعات – بغداد – ط/١، ١٤٣٥هـ -٢٠١٤م.

٨. الحلي، سيد حيدر، ديوان السيد حيدر الحلي، تحقيق: الدكتور مضر سليمان الحلي، نشر: الأعلمي للمطبوعات، بيروت . لبنان، ط/١، ١٤٣٢هـ . ٢٠١١م.

٩. الزركلي، خير الدين، الأعلام، الناشر: دار العلم للملايين، بيروت . لبنان، ط/١٥، ٢٠٠٢م.

١٠. الزركلي، خير الدين، الأعلام، الناشر: دار العلم للملايين، بيروت . لبنان، ط/٥، آيار ١٩٨٠.

١١. الساعدي، عبد الجبار، ناعية الطف، نشر: مكتبة آية الله الحكيم العامة – النجف الأشرف – ١٣٩٦هـ – ١٩٧٦م.

١٢. السماوي، محمد، الطليعة من شعراء الشيعة، نشر: دار المؤرخ العربي، بيروت، ٢٠٠١م.

١٣. شبر، سيد جواد، أدب الطف، مؤسسة التاريخ، لبنان . بيروت، ط/١، ٢٠٠١م.

١٤. الطهراني، آقا بزرگ، الذريعة إلى تصانيف الشيعة، نشر:دار الأضواء لبنان . بيروت . ط/٣، ١٤٠٣هـ . ١٩٨٣م.

١٥. العاملي، جعفر مرتضى، مأساة الزهراء، نشر: دار السيرة . بيروت . لبنان، ط/١، ١٤١٧هـ . ١٩٩٧م.

١٦. كحالة، عمر، معجم المؤلفين، دار احياء التراث العربي . بيروت . لبنان، (د. ت).

١٧. المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار، نشر دار إحياء التراث العربي . بيروت . ط/٣، ١٤٠٣هـ . ١٩٨٣م.

١٨. الموسوي، مدين، السيد حيدر الحلي شاعراً، نشر: دار الثقلين – بيروت – لبنان، ط/١، ١٩٩٧.

١٩. النوري، ميرزا حسين، جنة المأوى في ذكر من فاز بلقاء الحجة، تقديم وتحقيق مركز الدراسات التخصصية في الامام المهدي . النجف الاشرف . ط/١، شعبان ١٤٢٧هـ.

٢٠. الوائلي، أحمد، تجاربي مع المنبر ، نشر: دار الزهراء . بيروت . ط/١، ١٤١٩هـ . ١٩٩٨م.

٢١. اليعقوبي، محمد علي، البابليات ، مطبعة الزهراء، النجف الأشرف، ١٣٧٠هـ –١٩٥١.